النموذج اللغوي عند عبدالقاهر الجرجاني

عبدالله الجهاد

مفاهيم

مفهوم النموذج:

النموذج عبارة عن بنية منطقية أو رياضية تستعمل لعرض مجموعة من العلاقات[1] والبنية المنطقية التي نريد اكتشافها في هذا البحث تكمن داخل ذهن الجرجاني ، فهي المكون الأساس المتجانس لبنيته العقلية، وهي ما يمكن أن يطلق عليها «النموذج الأصل» أما النماذج التي يبنيها الباحثون ويصوغونها في خطاطات رمزية رياضية أو لغوية فهي «نماذج فروع»، فالنموذج الفرعي قد يقترب من النموذج الأصل، وقد ينحرف عنه، وعليه فالنموذج الأصل واحد، والنموذج الفرع متعدد ، ولهذا كتبت كثير من المؤلفات والمقالات عن الجرجاني، ولن تنتهي الكتابة لا عنه ولا عن غيرة مادامت النماذج الفروع متعددة في الزمان وفي المكان، وانطلاقاً من هذا المبدأ سندلي بدلونا في الموضوع لمحاولة اكتشاف هذا النسق المنطقي المتجلي في كتابه «دلائل

الإعجاز» لكن ما هي الوسيلة لاكتشاف هذا النسق ؟ لا يمكن العثور على النسق التجريدي دون وسيلة الإنجاز، فهي الطريق المؤدي إلى الاقتراب من النموذج الأصل، وأهم إنجاز عند الجرجاني كتابه «دلائل الإعجاز» ولكن لا يمكن لأي باحث أن يتعرض لمؤلف ما لاكتشاف نسق صاحبه الذهني دون أن يكون الباحث نفسه مسلحاً بنسق نظري آخر متكامل يساعده على اختصار الطريق للوصول إلى الهدف «النموذج الأصل».

ونستمد وسيلتنا لمقاربة الموضوع من نظرية التواصل التي تعتمد ثلاثة عناصر أساساً: المرسل ← الرسالة ← المرسل إليه .

ويمكن ترجمتها في نموذج الجرجاني على الشكل التالي:

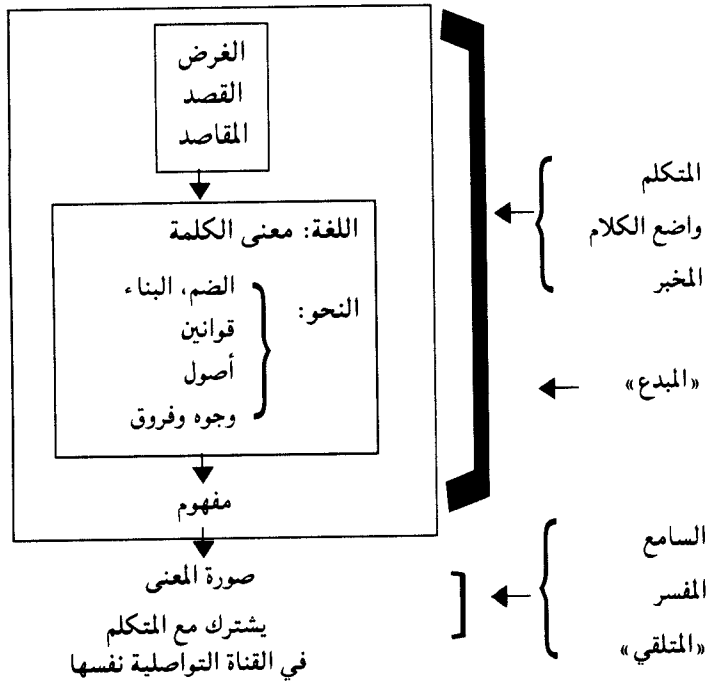

المتكلم: وقد يطلق عليه الجرجاني المخبر أو واضع الكلام، فالخبر يتكون من عنصرين اثنين: مخبر به ومخبر عنه، ولا يمكن تصور خبر مجرد عن مُخبِر يصدر عنه الخبر[2] والمتكلم عندما يفكر فإنه لا يفكر في مخبر به منعزلاً عن مخبر عنه وإنما يفكر بالعلاقة القائمة بينهما «فإنك إذا فكرت في الفعلين أو الاسمين، تريد أن تخبر بأحدهما عن الشيء أيهما أولى أن تخبر به عنه وأشبه بغرضك»[3] وقد تكون العلاقة بين المعاني في الفكر علاقة خبر أو وصف أو إشراك «عطف» أو إضافة أو إخراج «استثناء» أو شرط وجودي[4] وقد يطلق على المتكلم واضع الكلام، ولا يكون الكلام دالاً على الخبر بشكل خطي، وإنما تتفاعل الكلمات فيما بينها على شكل كيميائي، فصائغ الكلمات كصائغ قطعة من الذهب أو الفضة، فرغم أن القطعة لا تظهر في النهاية إلا على شكل ذهب فإنها في جوهرها مكونة من مجموعة من العناصر الخفية التي تكون الذهب أو الفضة (فإذا قلت: ضرب زيد عمراً يوم الجمعة ضرباً شديداً تأديباً له فإنك تحصل من مجموع هذه الكلم كلها على مفهوم، هو معنى واحد لا عدة معان كما يتوهمه الناس)[5] لذا فالمتكلم يمتاز عن واضع اللغة بالفصاحة لأن اللغة وَضْعٌ جامد، والكلام سلسلة متحركة إبداعية، والفصاحة ليست في الألفاظ ولا في معانيها، وإنما توجد في هذا الكم المتراص على شكل من الأشكال يستهدف غرضاً ما (فإذا قلنا في لفظة «اشتعل» من قوله تعالى: ﴿**واشتعل**

الرأس شيباً»: 4 أنها في أعلى رتبة من الفصاحة ، لم توجب تلك «الفصاحة» لها وحدها، ولكن موصولاً بها «الرأس» معرفاً بالألف واللام، ومقروناً إليهما «الشيب» منكراً منصوباً)[6].

الغرض:

يبدو لنا أن الجرجاني يستعمل «الغرض» و«القصد» بمفهوم واحد، ويلتجئ إلى لفظة «القصد» عندما يستعمل الفعل «قصد» ويلتجىء إلى «الغرض» عندما يستعمل الاسم، وذلك مثل قوله: (ضَرْبٌ أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد)[7] ويستعمل «القصد» مصدراً في مؤلفه مرادفاً للغرض، وليس «القصد».. هو الإخبار بمعنى كلم مفرد، وإنما هو إخبار بمفهوم الكَلِم متراصاً تركيبياً ودلالياً وتداولياً ولا يتصور وقوع قصد من المتكلم إلى معنى كلمة دون أن يريد تعليقها بمعنى كلمة أخرى[8]، وهذا التعليق بين الكلم يؤدي إلى معان حاصلة من مجموع الكلام تكون أدلة على الأغراض والمقاصد[9]، والقصد من معاني الكلم (أن تعلم السامع بها شيئاً لا يعلمه)[10]، وهذه إحدى المعلومات التداولية التي يتحدث عنها «سيمون ديك»[11].

وليس الغرض هو دلالة العبارة اللغوية ، وإنما هو مستوى آخر من الدلالة ، فقد يتساوى متكلمان في إيراد

الغرض ويختلفان في الوسيلة الدلالية التي توصلا بها إلى الغرض، يقول الجرجاني: (ولا يغرنك قول الناس: «قد أتى بالمعنى بعينه، وأخذ معنى كلامه فأداه على وجهه) فإنه تسامح منهم، والمراد أنه أدى الغرض، فأما أن يؤدي المعنى بعينه على الوجه الذي يكون عليه في كلام الأول حتى لا تعقل ههنا إلا ما عقلته هناك... ففي غاية الإحالة)[12]، ويتوصل المتكلم إلى الغرض بمستويين: المعنى ومعنى المعنى أو الدلالة الأولى والدلالة الثانية، ففي المستوى الأول تصل (إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن «زيد» مثلاً بالخروج على الحقيقة فقلت «خرج زيد»)[13]، وفي المستوى الثاني تصل إلى الغرض بدلالة " اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض)[14].

ويقدم الجرجاني شواهد كثيرة توضيحاً لرأيه مثل: كثير الرماد، ونؤوم الضحى وطويل النجاد... ويختصر الكلام قائلاً: (فها هنا عبارة مختصرة وهي أن تقول: «المعنى»، و«معنى المعنى» تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر)[15].

اللغة: بعد أن يحدد المتكلم الغرض الذي من أجله يبين الكلام، ينتقل إلى بناء الكلام نفسه، ورغم حديث الجرجاني عن أن المعاني أو الأغراض لا تكون بالكلم منعزلاً بعضه عن

بعض فإنه يرى ألا مناص من «اللغة» والتي يقصد بها الوحدات المعجمية «أسماءً وأفعالاً وصفات»، وهذه الوحدات لا دخل للمتكلم في إبداعها (فلو أن واضع اللغة كان قد قال «ربض» مكان «ضرب» لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد)[16] و(هل يستطيع أن يزيد «المتكلم» من عند نفسه في اللفظ شيئاً ليس هو له في اللغة)[17].

ولهذا لم يكن التفاضل قائماً بين هذه الوحدات مجردة، لأنها ملك لجميع متكلمي «اللغة نفسها»، ولن يقع التفاضل في اتصال معاني هذه المفردات واتحادها بدوالها[18] ولا يكون الإعجاب باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق[19] وإذا لم يكن لهذه الوحدات المعجمية مجردة أثر في المتلقي فإنها ضرورية وأساس مركزي لبناء الكلام، بل هي النواة الأساس لما يطلق عليه الجرجاني «النظم» واللغة هي أقسام الكلام «الفعل والاسم والحرف» ويمنح الجرجاني القيمة لمعانيها دون ألفاظها مع أنه يصعب الفصل بين الدال ومدلوله.

النظم:

إذا كانت اللغة «الوحدات المعجمية» هي الأساس للنظم فإن النظم هو الوسيلة التي يتحقق بها التواصل بين المتكلم والمستمع فأي سوء لتأليف الكلم أو سوء فهم معناه يؤدي إلى إفساد عملية التواصل برمتها، ولا يحدث الغرض الذي يستهدفه المتكلم أثناء ممارسته عملية الكلام.

فالنظم (أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه «علم النحو» وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها)[20] وهو (توخي معاني النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه، والعمل لقوانينه وأصوله وليست معاني النحو معاني ألفاظ)[21] وهو كذلك: (تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض)[22] مما قدمناه يتضح أن النظم يحتاج - بالإضافة إلى اللغة - إلى العناصر التالية: «الضم، والبناء والتعليق، والقوانين والأصول، والوجوه والفروق.

الضم والبناء:

لا أحد يختلف مع الجرجاني في أن الكلام لا يتم دون ضم كلمة إلى أخرى[23] ولكن يجب ألا نفهم من الضم مجرد وضع كلمة بعد أخرى، أو النطق بلفظة بعد أخرى، يقول الجرجاني لا يصح أن يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة، من غير اتصال يكون بين معنييهما ، لأنه لو جاز أن يكون لمجرد ضم اللفظ إلى تأثير في الفصاحة لكان ينبغي إذا قيل: (ضحك خرج... أن يحدث في ضم «خرج» إلى «ضحك» فصاحة)[26].

والضم لا يكون بصيغ صرفية خالية من المعاني، لأن خلوها من المعاني لا يسمح لها بإحداث الأثر المقصود في السامع.

يقول الجرجاني: (ألا ترى أنا لو جهدنا كل الجهد أن نتصور تعلقاً فيما بين لفظتين لا معنى تحتهما، لم نتصور؟)[25] ويحدد أن الضم بداءة يكون مؤتلفاً بالاسم مع الاسم، ويكون غير مؤتلف بالفعل مع الفعل، وبالحرف مع الحرف)[26].

والائتلاف بين الكلم يخضع لما يطلق عليه الجرجاني «التعليق».

التعليق:

والتعليق بين الكلم ثلاثة أقسام:

تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعلق حرف بينهما

(1) - تعلق اسم باسم

اسم + اسم

تعلق

خبر

حال

تابع

إضافة

تمييز

المشتقات + فاعل
نائب الفاعل
مفعول

(2) - تعلق اسم بفعل

فعل + اسم

تعلق

فاعل

مفعول

مفعول مطلق

مفعول فيه

مفعول لأجله

خبر كان

حال

المستثنى

(3) - تعلق حرف بهما

فعل + حرف + اسم

حروف الجر

أداة الاستثناء

الواو بمعنى مع

فعل + اسم + حرف + اسم

حروف العطف

حرف + «فعل + اسم»

حرف + «اسم + اسم»

حروف النفي

حروف الاستفهام

حروف الشرط

وطرق التعليق تستوجب معرفة علم النحو ، فلا نظم بدون معرفة القوانين النحوية التي تسمح بائتلاف الكلم ولا تسمح بائتلاف أخرى ، فعلى المتكلم أو الناظم أن ينظر إلى الوجوه والفروق، فالنحو يسمح لك بوجوه كثيرة تبدو متشابهة سطحياً ولكن فيها فروقاً في العمق، وعلى المتكلم أو الناظم أن يختار ما يناسب المقام لإرسال الخطاب (فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له)[27].

فالخبر في الوجوه التالية واحد ولكن التعبير عنه مختلف: «زيد منطلق» و«زيد ينطلق» و«المنطلق زيد» و«زيد هو المنطلق» و«زيد هو منطلق»[28] فكما أمكن للمتكلم أن يختار من تلك الوجوه ما يريد، يمكن له أن (يتصرف في التعريف، والتنكير، والتقديم، والتأخير في الكلام كله، وفي

الحذف والتكرار، والإضمار، والإظهار، فيصيب بكل من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له)[29].

ويجب أن يكون كل تصرف خاضعاً للقوانين النحوية، ولا يقصد الجرجاني بالقوانين النحوية، القواعد المستنبطة المسطرة في كتب النحو، لأن المتكلم قد يجهل جهلاً كلياً الممارسة العلمية للنحو، ولكنه يمارسه أثناء العملية التواصلية، ويعني بالقوانين النحوية القواعد التجريدية الكامنة في ذهن كل من المتكلم وَالمستمع، بواسطتها ينتج الأول الكلام ، وبوساطتها يفك الثاني رموزه، (فإذا عرف البدوي الفرق بين أن يقول: «جاءني زيد راكباً» وبين قوله: «جاءني زيد الراكب» لم يضره أن لا يعرف أنه إذا قال: «راكباً» كانت عبارة النحويين فيه أن يقولوا في «راكب» إنه حال وإذا قال: «الراكب» أنه صفة جارية على «زيد» وإذا عرف في قوله: «زيد منطلق» أن «زيداً» مُخبر عنه و«منطلق» خبر، لم يضره أن لا يعلم أنا نسمي «زيد مبتدأ...)[30] فالجرجاني يفرق بين علم موضوع مصنوع ، وبين معرفة كامنة في عقل المتكلم، وجهل المتكلم لهذا العلم المصنوع لا يمنعه من إدراك الفروق بين أنماط الجمل إنتاجاً وتفكيكاً[31] فالأعرابي الذي (سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسولَ الله بالنصب، لم تستسغ سليقته النصب فأنكر قائلاً: ماذا صنع؟ أنكر عن غير علم لأن النصب: يخرجه عن أن يكون خبراً ويجعله والأول في حكم اسم آخر أو فعل، حتى يكون كلاماً وحتى يكون قد ذكر ما له فائدة؟ إن

كان لم يعلم ذلك فلماذا قال: «صنع ماذا؟» فطلب ما يجعله خبراً ؟)[32].

المفهوم:

إن المتكلم عن (ما يضم الكلمة إلى الكلمة ، بواسطة التعليق المستند إلى القوانين النحوية فإنه يهدف إلى الوصول إلى مفهوم العبارة اللغوية، وهو الخلاصة المسكوكة المكونة من معاني الألفاظ جميعاً) فإذا قلت: «(ضرب زيد عمراً يوم الجمعة ضرباً شديداً تأديباً له» فإنك تحصل من مجموع هذا الكلم كلها على مفهوم هو معنى واحد لا عدة معان، كما يتوهمه الناس، وذلك لأنك لم تأت بهذه الكلمة لتفيده أنفس معانيها، وإنما جئت بها لتنفيده وجوه التعلق التي بين الفعل الذي هو «ضرب» وبين ما عمل فيه والأحكام التي هي محصول التعلق)[33].

وهذا المفهوم هو الذي يتوصل به المتكلم إلى الغرض الذي استهدفه قبل عملية صياغة الكلم بطرق مخصوصة.

نوعا الكلام:

إن المراحل التي يتبعها المتكلم توصلنا في النهاية في نظر الجرجاني إلى نوعين من الكلام، كلام عادي، وكلام فني، فالكلام العادي هو الذي ينساب في ذهن المتكلم دون إعمال روية ولا تفكير[34] وليس فيه أمور تدرك بالفكر اللطيفة،

ويوصل إليها بثاقب الفهم[35] وذلك كقول الجاحظ: (جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ...)[36].

أما الكلام المتقن ففيه معاناة وتخير لفظ وضم حرف لفعل أو اسم خاص دون غيره قصد الحصول على صورة أو هيئة لا يتوصل إليها إلا من مارس العمل المتقن، وسبر أغواره وعرف دقائقه كقوله تعالى ﴿**واشتعل الرأس شيباً**﴾ سورة مريم آية 4. بدل اشتعل شيب الرأس، فلا يتجلى العمل الفني فقط في الاستعارة، وإنما أن تسلك بتركيب الكلام مسلكاً آخر غير التركيب العادي[37].

الصورة:

إن كل المراحل السابقة التي تحدثنا عنها تجري في نفس المتكلم، ولم تصدر عنه خارج العالم الذهني، وهو ما يعبر عنه الجرجاني بمعان في النفس ، أو ما أطلق عليه أبو الحسن الأشعري «الكلام النفسي» ولكن بعد أن تصدر إلى العالم الفيزيائي «المدرك» تصبح «صورة» وهي التي تدركها حواس المستمع، فقد يتمثل العمل الفني عند المبدع بصورة متعددة: موسيقى، رسم، شعر، نحت،... والتفاضل والتمايز يكون عن طريق اختلاف الصور ، يقول الجرجاني: (واعلم أن قولنا «الصورة» إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا، فلما رأينا البينونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة الصورة، فكان تبين إنسان من إنسان وفرس من فرس،

بخصوصية تكون في صورة هذا لا تكون في صورة ذاك، وكذلك كان الأمر في المصنوعات، فكان تبين خاتم من خاتم وسوار من سوار بذلك، ثم وجدنا بين المعنى في أحد البينين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا وفرقاً، عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك)[38].

فالصورة هي الوساطة بين المتكلم وبين المستمع وهي التي بين المبدع وبين المتلقي المستمع (مفكك الصورة).

إن الدور الذي قام به المتكلم في صياغة الصورة هو الدور الذي يقوم به المستمع بدءاً من تفكيك الصورة، فالأول بدأ من الغرض والمقاصد إلى الصورة، والثاني يبدأ من تفكيك الصورة ليصل إلى غرض المتكلم، فإذا حصل التطابق بين المصدر والهدف حصل التأثير، وإذا انحرف المستمع عن فهم غرض المتكلم لم يحصل التأثير المقصود، ولهذا يلزم الجرجاني المستمع أن يكون في مستوى فني ولغوي واحد مع المتكلم و(لا يجهل المزية فيه «أي اللفظ» إلا عديم الحس ميت النفس وإلا من لا يكلم لأنه من مبادئ المعرفة التي من عدمها لم يكن للكلام معه معنى)[39] وإذا توسل المتلقي ظاهر اللفظ دون باطنه في التأويل، واعتمد السطح دون العمق، فإنه يبطل على المبدع الصورة التي أرادها، ويفسد عليه كلامه الذي تلقاه منه، ويقدم الجرجاني مثالاً على العلاقة بين المبدع والمتلقي في قول أبي تمام:

لعاب الأفاعي القاتلات لعابه وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل

فلو أن المتلقي قدر أن «لعاب الأفاعي مبتدأ ولعابه خبر، كما يوهمه الظاهر لأفسد ما يرمي إليه المبدع وذلك أن الغرض أن يشبه مداد قلمه بلعاب الأفاعي، على معنى أنه إذا كتب في إقامة السياسات أتلف به، النفوس، وكذلك الغرض أن يشبه مداده بأري الجني على معنى أنه إذا كتب في العطايا والصلات أوصل به إلى النفوس ما تحلو مذاقته عندها، وأدخل السرور واللذة عليها، وهذا المعنى إنما يكون إذا كان «لعابه» مبتدأ، «ولعاب الأفاعي» خبراً)[40].

خاتمة

حاولنا من خلال تقديمنا لهذا النموذج أن نضع خطاطة تجريدية يمكن أن نستعين بها في تفسير التحليل الذي يقدمه الجرجاني في كثير من النصوص الإبداعية، لأن تحليله لا يغفل لا المرسل ولا الرسالة ولا المرسل إليه.

الإحالات

1) dictionnaire de linguistique. p 322.

2) الجرجاني ، دلائل الإعجاز ص ، 528.

3) ن.م. ص 411.

4) ن.م. ص 416.

5) ن.م. ص 413.

6) ن.م. ص 402.

7) ن.م. ص 262.

8) ن.م. ص 412.

9) ن.م. ص 141.

10) ن.م. ص 412.

11) يرى سيمون ديك أن المعلومات التداولية بين المتكلم وبين المستمع إما أن تكون بإضافة معلومات جديدة كان المستمع يجهلها، أو تعويض معلومة بمعلومة أخرى لدى المستمع، أو تذكير بمعلومة نسيها المستمع، ديك 189، ص 10.

12) الجرجاني، دلائل الإعجاز ص 261.

13) ن.م. ص 262.

14) ن.م. ص 262.

15) ن.م. ص 263.

16) ن.م. ص 49.

17) ن.م. ص 401.

18) ن.م. ص 44.

19) ن.م. ص 46.

20) ن.م. ص 81.

21) ن.م. ص 452.

22) ن.م. ص 4.

23) ن.م. ص 49.

24) ن.م. ص 394.

25) ن.م. ص 466. ويقول في موضع آخر «ولو فرضنا أن تنخلع من هذه الألفاظ التي هي لغات، دلالتها، لما كان شيء منها أحق بالتقديم من شيء، ولا تصور أن يجب فيها ترتيب ونظم ص 50.

26) ن.م. ص 466.

27) ن.م. ص 82.

28) ن.م. ص 81.

29) ن.م. ص 82.

30) ن.م. ص 418.

31) ن.م. ص 419.

32) ن.م. ص 419.

33) ن.م. ص 413. مجموع المعنى الذي يتحدث عنه الجرجاني هو شبيه بما يعبر عنه اللسانيون التوليديون التحويليون با (الملغمة) Amaglgameأي إدماج الوحدات اللغوية بعضها في بعض ، إلا أنهم يتحدثون عنها (الملغمة) بطريقة علمية إجرائية إنطلاقاً من طرقهم الخاصة في التحليل اللغوي .

انظر: Nicolas Ruwet introduction à la grammaire generative p. 334.

34) الجرجاني دلائل الإعجاز ص 96.

35) ن.م. ص 98.

36) ن.م. ص 97.

37) ن.م. ص 100.

38) ن.م. ص 508.

39) ن.م. ص 430.

40) ن.م. ص 371 .

المراجع

عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، الناشر: مكتبة الخانجي - مصر - القاهرة. ط/ 1410هـ، 1989م .

Dik simon 1989, the theory of functional grammar part 1 the structure of the clause Dordrecht. Foris.

Dubois Jean et autres, dictionnaire de linguistique larousse 1973 Ruwet Nicolas 1968, Introduction à la grammaire Génerative Plon paris 6?.